شذراتٌ من حياةٍ سياسية

وجدتُها!

عن دار الآداب يصدر نهاية هذا الشهر كتابٌ للبروفسور نورمن فنكلستين، يتضمن ثلاثة أبحاث ضخمة عن فلسطين ولبنان و«عملية السلام» واللوبي الإسرائيلي، فضلا عن سيرة ذاتية متوهجة بالكفاح والعذاب والرفض والشرف. الجدير ذكره أن أكثر موادّ هذا الكتاب لم يُنشر في أية لغةٍ قبل الآن. في ما يلي الفصل الأول من القسم الخاص بسيرة فنكلستين الذاتية، وعنوانه: «وجدتُها!»، علمًا أنّ مجلة الآداب ودار الآداب سبق أن عرّفتا القارئ العربي بهذا المثقف اليهودي الأميركي اليساري قبل أعوام عبر كتابه **صناعة الهولوكوست** (ترجمة رئيس التحرير) وعدد كبير من المقالات والمقابلات نُشر على صفحات هذه المجلة.

نورمن فنكلستين

ترجمة: سماح إدريس

نورمس فنكلستين في تظاهرة في القدس احتجاجًا على طرد الجيش الإسرائيلي لعائلة فلسطينية من بيتها في سلوان

«حين حصلتْ مجزرة صبرا وشاتيلا وقفتُ وحيدًا في مانهاتن وحملتُ يافطةً «مجزرة جديدة في لبنان، إلامَ نبقى صامتين؟»»

وجدتُها (Eureka)![1]

منذ اليوم الأول لغزو إسرائيل للبنان في ٥ حزيران ١٩٨٢ راح فريقٌ ضخمٌ من المحتجّين، معظمُهم عربٌ مسلمون ومسيحيون، إلى جانبِ آخرين أيضًا، يعتصمون كلَّ يوم مقابلَ القنصلية الإسرائيلية وسطَ مانهاتن (نيويورك). ومع أنّ عدد القادمين تضاءل مع استمرار الحرب، فقد حاولتُ أن أكون هناك كلَّ يوم في ذلك الزمن كنتُ أعلِّم أولادًا محرومين على الجانب الآخر من المدينة في فتراتِ ما بعد الظهر، فيما كنتُ أنكبّ في الصباحات والأماسي على أطروحة الدكتوراه أما أثناء فُرَص الغداء، فكنتُ أهرول إلى القنصلية، فأُمضي بعضَ الوقت في الاعتصام، ثم أهرول عائدًا إلى عملي، لأعودَ بعد ذلك إلى القنصلية في الأماسي. وكان الزملاءُ المحتجّون يحثّونني على رفع يافطتي عاليًا:

«ابنُ الناجييْن من انتفاضةِ غيتو وارسو وأوشفيتز ومايجدنك، هذا، لن يكون صامتًا: أيُّها **النازيُّون** الإسرائيليُّون، أوقِفوا **الهولوكوست** في لبنان!»[2]

ومع اعتياد الجمهور القصفَ الإسرائيليَّ الوحشيَّ على مضض، خفّفتُ اللهجةَ، فأسقطتُ كلمةَ «**النازيون**» أولَ الأمر، وأحْلَلتُ كلمةَ «**المجزرة**» مكانَ «**الهولوكوست**.» بعد وفاة أمي سنةَ ١٩٩٥، لاحظتُ أثناء تنظيفي لأدراجها أنّها احتفظتْ، من بين تذكاراتها، بصورةٍ لي أَحْمل فيها اليافطةَ الأصلية

وجاءت ذروةُ الاحتجاجات بعد أربعة أشهر، في أيلول ١٩٨٢، حين نظّمتْ إسرائيلُ مجازرَ صبرا وشاتيلا. فذاتَ صباحِ سبتٍ سمعتُ على الراديو تقاريرَ، كانت ما تزال غامضةً، عن مجزرةٍ في لبنان قرّرتُ حينها كتابة يافطةٍ ذاتِ رسالةٍ موجزة «مجزرةٌ جديدةٌ في لبنان، إلامَ نبقى صامتين؟» ووقفتُ وحيدًا عند زاوية أحد الشوارع في القسم الأعلى من غربيّ مانهاتن، وكان آنذاك حيّاً يَقْطنه يهودٌ ليبراليون ميسورون، وفيه أُخِذ الكثيرُ من لقطاتِ أفلام وودي آلان الأُولى. أحدُ المارّين، وكان في طريقه إلى الكنيس كما يبدو، زَمْجَرَ. «أَمِنَ الضروريّ أن تَفْعل ذلك يومَ السبت؟»[3] رَدَدْتُ بسرعة «لم يكن من الضروريّ أن أفعلَ ذلك لو لم تَذبحْ إسرائيلُ العربَ يومَ السبت.»

وما إنْ كُشفتْ حقيقةُ ما جرى في صبرا وشاتيلا حتى انقلب اليهودُ فجأةً ضدّ الحرب. ومن غير أن يحثّهم أحدٌ عمليّاً، اصطفّوا حتى ملأوا مساحةَ نصف «بلوك» ليوقّعوا عريضةً

١ ـ يُنسب إلى أرخميدس أنّه قال eureka (وجدتُها!) عند اكتشافه قانونَ الجاذبية المحدّدة، أو طريقةً لتحديد نقاء الذهب (المترجم)

٢ ـ يكْتب نورمن فنكلستين في **صناعة الهولوكوست** «[كان] أبي وأمي من الناجين من غيتو وارسو ومن معسكرات الاعتقال النازية وباستثناء والديّ، فقد أباد النازيون جميعَ أفراد عائلتي من جهة أبي وأمي معًا » (**صناعة الهولوكوست**، ترجمة سماح إدريس، بيروت دار الآداب، ٢٠٠١، ص ١٥ ـ ١٦) (م)

٣ ـ المعلوم أنّ السبت يومُ راحةٍ وعبادةٍ عند اليهود (م)

«في شبابي كنتُ أقتبس، إلى ما لا نهاية، مقاطع من أقوال ماو تُغدق الشتائم على المثقفين»

تطالب إسرائيلَ بالانسحاب غير المشروط من لبنان. كان توماس فريدمان، وهو الرئيسُ الحالي للمراسلين الديبلوماسيين لجريدة **نيويورك تايمز**، يَعْمل آنذاك من لبنان. وقد كَتب بعد المجزرة تقريرًا مفصّلاً ودقيقًا عمّا جرى. لذا، كان تثبيتُ صفحات الجريدة تلك على عمودٍ للتلفون أمرًا يسهّل مهمّةَ جمع التواقيع: فإذا كانت **نيويورك تايمز** نفسُها تقول إنّ الفلسطينيين واللبنانيين قد ذُبحوا، فذلك يعني أنّ ذلك ربما هو ما قد حَصَل.

بعد مضيّ أسبوع على الحرب كوّنتُ بمعيّة عشرين يهوديّاً تقريبًا مجموعةَ JAIMIL، «يهودٌ ضدّ المجزرة الإسرائيلية في لبنان.» فإسرائيلُ تزْعم دومًا أنّها تتصرّف باسم يهود العالم، وتستند إلى الرأسمال الأخلاقي للمحرقة التي تعرَّضَ لها اليهودُ على أيدي النازيين من أجل تبرير جرائمها. وقد بدا مفيدًا من الناحية السياسية أن نعرِّفَ أنفسنا علنًا بأنّنا **يهودٌ** معادون للحرب. المشكلة أنّ مجموعتنا لم تستطعْ أن تتّفق على أيّ أمرٍ يتعدّى كونَنا يهودًا، بل لم تتّفقْ على هذا الأمر نفسِه إلاّ بصعوبة! أحدُ الأعضاء جَهَر بأنّه يهوديٌّ فقط إلى الحدّ الذي يساعد الفلسطينيين ذلك. أذْكر أنّني رأيتُ ذلك أمرًا أحمق، ومدعاةً للازدراء إلى حدٍّ ما، وتضليلاً للنّفْس، لكنّني بقيتُ صامتًا؛ ففي نهاية المطاف، كنتُ ما أزال أمتلك إحساسًا غامضًا فحسبُ بما يعنيه، لي شخصيّاً، أن أكون يهوديّاً. ولكنّنا، في ما يتخطّى عدمَ الإجماع على معنى هويتنا اليهودية، لم نستطع أن نصل إلى اتّفاق سياسي على حلّ النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. فإلى جانب معارضتنا للعدوان الإسرائيلي، فإنّ ما جَمَعَنا كان كراهيةً مشتركةً لأنماط البشر المنضوين في مجموعات كمجموعة «السلام الآن» [الإسرائيلية]؛ إذ إنّ هدفَ هؤلاء الأوّل، في رأينا، هو أن يُجَمِّلوا للإعلام الغربي الفظائعَ الإسرائيليةَ المتواصلةَ، متظاهرين بالألم في ما هم يَقْتلون الفلسطينيين ـ أو أنّهم، بعبارةٍ تهكّميّة أَطْلقها إسرائيليون كلبيّون [شكّاكون بدوافع البشر]، «يَقْتلون القتيلَ ويَمْشون في جنازته»[1] ـ من غير أن يَقْطعوا فعليّاً مع إسرائيليّي الخطّ السائد. ومن جهة أخرى، لم تستطع مجموعتُنا أن تتّفق إنْ كانت ستَدْعم مشروعَ الدولتيْن (واحدة لليهود والأخرى للفلسطينيين)، أو مشروعَ دولة واحدة تَدْمج الشعبيْن معًا. ذلك أنّ دعمَ قيام دولة يهودية بدا وكأنّه إذعانٌ للتمييز الذي يمارَس ضدّ السكّان العرب [فلسطينيي ١٩٤٨]، في حين أنّ معارضة قيام دولة يهودية بدا وكأنّه يَحْرم الإسرائيليين الحقَّ العالمي في تقرير المصير. وفي النهاية اتّفقنا على ألاّ نتّفق

لم تعد مجموعتُنا قادرةً على أن تبقى ملتئمةً. فقد فُسِّرَ عدمُ امتلاكنا لـ «موقفٍ» من إسرائيل بأنّنا قد نؤْثِر دمارَها. وهذا ما أدّى بدوره، وبشكلٍ هائل، إلى خفضِ احتمال نموّنا. والحقّ أنّ معظمَ أعضاءِ مجموعتنا (ومن غير اللائق أن أستبعدَ نفسي) كانوا meshugge إلى حدٍّ طفيف ـ وهذه هي الكلمةُ اليِيديةُ لـ «مجانين» ومع أنّ غزوَ لبنان عامَ ١٩٨٢ أشَّرَ على اختراق «مسألة فلسطين» للتيّار السياسي الأميركي السائد ـ فللمرّة الأولى راح أناسٌ «عاديون» يعبِّرون عن شكوكٍ قويةٍ حيال السياسة الإسرائيلية ـ فإنّ المعارضة **الحقيقية** في صفوف اليهود ظلّت هامشيةً. وأيّاً ما كانت مشاعرُنا جديرةً بالثناء، فإنّنا كنّا نمارس سياسةَ الطوائف، ونعاني إضافةً إلى ذلك عددًا لامحدودًا من العُقَدِ والعُصابات يفوق ما يعانيه اليهودُ الآخرون أنفسُهم. وكنتُ أمزح فأقول إنّ أضخم كارثةٍ من كوارث حرب لبنان عام ١٩٨٢، بعد مجازر صبرا وشاتيلا، هي مجموعتُنا تلك!

❖ ❖ ❖

أثار غزوُ لبنان عامَ ١٩٨٢ جدلاً كبيرًا عن تاريخ النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني وعن طبيعة الصهيونية. وكانت مشاركتي في هذا السِّجال الخاصّ انعطافًا سياسيّاً وثقافيّاً بالنسبة إليّ. فعلى التزامي بالنشاطية السياسية، فإنّني أشْعر دومًا بالحاجة إلى معرفة الوقائع معرفةً تامّةً. كما أنّني أستقي سعادةً ورضًى كبيريْن، ناهيكم بالفخر، من الحياة العقلية، وأكْره أن أهجرَها هجرانًا تامّاً لصالح السياسات العملية

في شبابي كنتُ ماويّاً، والماويّةُ نزوعٌ سياسيٌّ يميل بشكلٍ خاصّ إلى معاداة الثقافة معاداةً فجّة. وكنتُ أقتبس، إلى ما لا نهاية، مقاطعَ من أقوال ماو، تُغْدق الشتائمَ على المثقفين،

١ ـ التعبير بالإنجليزيّة «shooting and crying»، الذي يمكن تعريبُه بـ «ضَرَبني وبكى»! (م)

وتمتدح فضائلَ العمّال والفلاّحين العاديين. ولكنْ في أيام شبابي الماوية نفسِها، كنتُ ألتهم كلَّ كتابٍ أجده عن الصين (صرتُ أوّلَ متخرِّج من جامعتي أعلِّم مساقًا جامعيًا عن الصين الحديثة)، وكنتُ منجذبًا نحو الماويين الواسعي الاطّلاع أمثال تشارلز بِتِلْهايْم، وهو ماركسيٌّ فرنسيٌّ كان يعلِّم في مدرسةٍ مهيبةٍ هي «المدرسة التطبيقية للدراسات العليا» (EPHE) في باريس، وپول سويزي، وهو اقتصاديٌّ من جامعة هارڤرد أنشأ فيما بعدُ مجلةً اشتراكيةً مؤثِّرةً هي **النشرة الشهرية** (Monthly Review). ولحرصي على قراءة أحدثِ ما يُكْتبه ينبوعُ الحِكْمة الماركسية ذاك، كنتُ أتسكَّع قرب مكتب النشرة المذكورة لكي أحصل على النسخة الأولى من كلّ عددٍ فَوْرَ خروجه من المطبعة. ولقد أصبح سويزي فيما بعد، وهو ألطفُ الأَنْفُس وأَشرفُها، مُعَلِّمًا مهمًّا وداعمًا لي أيضًا.

سنةَ ١٩٧٩ ذهبتُ، وأنا ممتلئٌ بالترقُّب والرّهبة، للدراسة على تشارلز بِتِلْهايْم في باريس. كان بِتِلْهايْم، من جوانب عديدة، نموذجًا للماندرين[1] الفرنسي. وما أزال أرى بعينِ قلبي أصابعَه الطويلة النحيلة التي يَغْلب الظنُّ أنَّها، برغم تعليمات ماوْ عن فضائل العمل اليدوي، لم تَرْفَعْ يومًا ما هو أثقلُ من قلمِ حبر! ولم يكن المرءُ ليقابله أثناء ساعات مكتبه المخصَّصةَ للتلاميذ، بل كان عليه أن ينتظر دعوةً مطبوعةً ومرغوبةً للعشاء معه في بيته. ومع ذلك، فقد كان بِتِلهايم ملتزمًا التزامًا شديدًا بجعل الماركسية حقيقةً حيّةً. «إنَّها سببُ وجودي،» كان يقول لي من غير تكلُّف. إلاّ أنَّ طلاّبه كانوا أكثرَ تعلُّقًا ممّا كنتُ أستسيغُه بالجانب الأكاديمي من الماركسية على حساب «الممارسة الثورية». وعلاوةً على ذلك، ويا لَغَمّي، فإنّني لم أكن أستطيع أن أجاريَهم من الناحية الثقافية.

لكنّ ما أَحْكَمَ تحرّري من سِحر الماوية كان العُقْمَ المتصاعدَ لـ«إشكالية» بِتِلهايم و«إشكاليتي». فبعيْد موت ماو، خُلِعَ عن السلطة وَرَثَتُه، «عصابةُ الأربعة،» وتبدَّد إرثُه. وبَدَتْ نظريةُ «الانتقال الاشتراكي،» التي كنتُ أنوي أن أخصِّص لها أطروحةَ الدكتوراه، أكثرَ طلاقًا مع الحقيقة من أيّ وقتٍ مضى. ولقد أَجبرني الانهيارُ السريعُ للماويّة على إعادة التفكير في كثيرٍ من معتقداتي: فلا بدّ، والحالُ هذه، أنّه قد كان في قلب الثورة الصينية من العَفَن أكثرُ بكثيرٍ ممّا دُفِعْتُ ـ وسَمَحتُ لنفسي بأن أُدْفَعَ وبأن أَدْفَعَ الآخرين أيضًا ـ إلى تصديقه. وكان أشدَّ ما آلَمَ شخصًا ظنَّ أنّه فَهِمَ الكثيرَ الكثيرَ هو أن يُضْطَرَّ إلى الاعتراف بأنّه كان شديدَ الحماقة. وأَذْكر أنَّ أحدَ الكافرين [بالماوية] أَخْبَرَ هذا المؤمنَ الحقيقيَّ [فنكلستين] بأنَّ فرعًا لماكدونالدز سيُفتتح أمام الحائط الصيني العظيم قبل أن تطأ قدماي الصينَ. وهذا ما حصل فعلاً. وفَقَدْتُ كلَّ اهتمام بالحجّ إلى الصين.

طوال الأسابيع الثلاثة الأُولى بعد الانقلاب في الصين لم أستطع أن أهجرَ السريرَ إلاّ بشقّ النفس. لاحقًا، أُعْلمتُ أنَّ بتلهايم اضْطُرّ إلى الاستشفاء. لا أَقْدر على الجزم، بالنسبة إلى حالتي تلك، إنْ كان مردّها إلى الخيبة أكثر منها إلى الخجل. بل الحقّ أنّني، منذ الإطاحة بـ«عصابة الأربعة» إلى ما قبل سنةٍ من الآن تقريبًا، لم أَفْتَحْ كتابًا واحدًا أو أَنْهِ مقالةً واحدةً عن الصين. إنّ الجرح ليَذْهبُ في النفس عميقًا. لكنّني تعلّمتُ درسًا هامًّا، وإنْ يكن مؤلمًا: «شُكَّ في أيِّ شيء» (وهذه من عقائد ماركس).

❖ ❖ ❖

لمّا كان كلُّ مَنْ حولي أثناء حرب لبنان عامَ ١٩٨٢ معاديًا للصهيونية، فقد وجدتُني أُجادل ـ إنْ لم يكن في **تأييد** الصهيونية تمامًا ـ ففي معاداةِ معاداةِ الصهيونية. والحقّ أنّني ما زلتُ أرفض النعتَ الريفيَّ «مُعادٍ للصهيونية»؛ ذلك أنّ معارضتي للسياسة الإسرائيلية تَنْبع من رؤيةٍ أخلاقيةٍ أكبرَ بكثير. فليست الصهيونيةُ هاجسي، وإنّما الظلمُ هاجسي.[2]

ثم إنّني، بطبعي، مولَعٌ بالمعاكسة. فحين كنتُ أعمل لحساب جريدة ماوية، أيْ ستالينية، كنتُ أُغازل الموتَ بأن أَدْخل مكتبَها كلَّ يومٍ حاملاً في يدي أحدَ مجلّدات ليون تروتسكي. وبعد تبدُّد

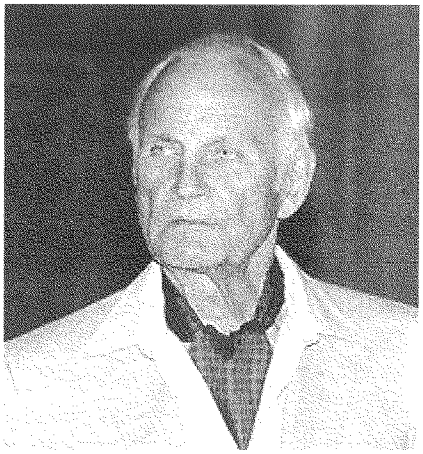

«كنتُ منجذبًا نحو الماويين الواسعي الاطّلاع أمثال پول سويزي، الذي أصبح معلّمًا وداعمًا لي»

---

١ ـ أيْ نموذجًا للمثقف الصيني، المشهور بأظافره الطويلة، دليلاً على عدم قيامه بأيّ عملٍ يدويّ. (م)

٢ ـ استوضحتُ الكاتبَ عن ذلك، فأجابني بما يلي: «كثيرون من مُعادي الصهيونية سياسيون رجعيون. أنا معادٍ للصهيونية **لأنّني** يساري. معاداة الصهيونية عندي مشتقّةٌ من شيءٍ آخر، وليست أصلاً في ذاتها.» (م)

«جون بيترز تقول إنّ الفلسطينيين دخلوا خلسةً إلى فلسطين عشية الاستعمار الصهيوني!»

أوهامي الماوية تبدُّدًا أليمًا، بدأتُ أَنظر إلى كُلّ دوغما [عقيدةٍ جامدة] ـ يسارًا أو يمينًا، مؤيِّدةً أو معارضةً ـ بعين الشكّ. ولكي أكتشفَ الحقيقةَ بنفسي قرّرتُ أن أتولّى بشكلٍ مكثّفٍ دراسةَ الصهيونية، التي صارت موضوعي الجديدَ لأطروحة الدكتوراه.

عامَ ١٩٨٤، بعد أن انتهيتُ لتوّي من مرحلة البحث [تمهيدًا لكتابة الأطروحة]، تعثّرتُ بكتابٍ كان قد صَدَرَ حديثًا بعنوان **منذ قديم الزمان** (From Time Immemorial)، وهو كتابٌ وَعَدَ بـ «تثوير» فَهْمنا للنزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. ومع أنّني لم أكن أَعْرف مؤلِّفتَه جون بيترز، فقد كان قميصُ الكتاب مزيّنًا بتقريظاتٍ صحفيةٍ لنخبةٍ من الكتّاب الأميركيين، في حين أَخَذَ فيضٌ من المقالات المتوهّجة بالمَدْح يُصاحب نشرَ الكتاب. كانت أطروحة بيترز المركزية، المدعَّمةُ كما بدا بحوالى ألفيْ هامش ختاميّ وبدراسةٍ ديموغرافيةٍ عويصة، هي أنّ فلسطين كانت خاليةً من السكّان عشيةَ الاستعمار الصهيوني، وأنّ العرب ـ بعد أن جَعَلَ المستوطنون الصهاينةُ «الصحراءَ تُزْهر» ـ دخلوا فلسطينَ خِلْسةً من جهة الدول العربية المجاورة، من أجل استغلال الفُرص الاقتصادية الجديدة؛ وأنّ هؤلاء العرب القادمين حديثًا ادّعوا بعد ذلك أنّهم «فلسطينيون» من أبناء الأرض الأصليين. فلو كان ذلك صحيحًا، فإنّ نتائج بيترز «ثوريةٌ» بالفعل!

كان ردّ فعلي الأول هو رفض الكتاب بوصفه دعايةً صهيونية لكنّ صوتًا [داخليًا] مُلحًا ذكّرني بأنّه لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على رفضي الطائش لأيّ نقدٍ موجّهٍ إلى الصين الماوية بوصفه «دعايةً بورجوازيةً.» صحيحٌ أنّني سبق أن قرأتُ تقاريرَ تاريخيةً معتَبَرةً أكّدتْ وجودَ العرب في فلسطين قبل قدوم المستوطنين الصهاينة، لكنّ العنصرَ الشكّاكَ في داخلي قال إذا كان باحثون بارزون أمثال سويزي وبتِلْهايْم أخطأوا في كلّ ما يخصّ الصينَ الماوية، فربّما كانت المراجعُ التي أعتمدُ عليها في ما يخصّ فلسطينَ مخطئةً مثلَهم!

ولمّا لم أكن أريد أن أعاني تحرُّرًا جديدًا من الوهم وإذلالاً جديدًا، فقد عزمتُ على التدقيق المنهجي والموضوعي في كتاب بيترز، أيّاً تكن الخلاصاتُ التي أتوصّلُ إليها مؤلمةً.

بيتُ القصيد في كتاب **منذ قديم الزمان** لبيترز دراسةٌ ديموغرافية تُتابع تحرُّكات السكّان العرب في فلسطين منذ بناء المستوطنات الصهيونية الأولى وحتى إنشاء إسرائيل. استلقيتُ في سريري، والورقةُ والقلمُ في يدي، ورحتُ أقلّبُ الكتابَ جيئةً وذهابًا ـ من التفسير النصّي المكتوب بنثرٍ شبهِ مستغلقٍ إلى الجداول المنشورة في نهاية الكتاب ـ منكبّاً عليه ساعاتٍ طويلة، محاولاً أن أكتنه أطروحةَ بيترز وحين انتهيتُ، بدا الكتابُ وكأنّه خَرَجَ من خلاّطة!

ذاتَ يوم في أيار ١٩٨٤، حوالى الواحدة فجرًا، بدأ جسدي يرتجف، وعمودي الفقريُّ يَخِزُني، وعيناي تَدْمعان تحقّقتُ من أحد الأرقام الأساسية في الدراسة الديموغرافية، وأعدتُ التحقيق، ثم أعدتُه من جديد، فإذا به خطأٌ صراخ، وما من شكٍّ في أنّ «الخطأ» كان مقصودًا. رحتُ أذرع شقّتي الصغيرة ذهابًا وإيابًا، وأهزّ ذراعيَّ هبوطًا ونزولاً في حالةٍ من الاستثارة العصبية، وأنا أكاد أصرخ: «لقد فعلتُها! لقد فعلتُها! لا أستطيع أن أصدّق ذلك، لقد فعلتُها!»

وماذا كان أيُّ صبيٍّ يهوديٍّ طيّبٍ سيَفْعل في لحظةٍ كهذه؟

تناولتُ التلفون:

ـ ألو، ماما لقد فعلتُها! لقد فعلتُها! لا أستطيع أن أصدّق ذلك، لقد فعلتُها!

ـ ما أَسْعدني لحالك! ماذا فعلت؟

ـ لقد كَشَفْتُ كذبةً

إنّ اكتشافَ كذبةٍ، على ما قال لي سويزي في ما بعدُ، هو لحظةُ الـ «وجدتُها!» (eureka) التي يَطْمحُ إليها كلُّ باحث وبعد التثبُّت من نتائجي الرقمية مع أحدِ علماء الكومبيوتر في جامعة برنستون، نضّدتُها وأرسلتُها بالبريد إلى حوالى عشرين أكاديميّاً بارزًا كانوا قد خطّوا كتاباتٍ متعاطفةً مع الفلسطينيين وحَدَثَ أنّني لم أتلقَّ إلاّ جوابَ واحدٍ منهم. إلاّ أنّ هذا الجواب الأوحد غيّر حياتي.

❖ ❖ ❖

كان ذلك صباح السبت حين رنّ التلفون.

ـ ألو، أنا نومْ تشومسكي.

كنتُ، شأنَ كلِّ أميركيٍّ في الوسط اليساري تقريبًا، أُبجِّل تشومسكي. فقد كان يوثِّق بغزارةٍ ما كنّا نشتبه فيه، ويُثْبت بما لا يَدَعُ مجالاً للشكِّ ما نَحْدس به. وكنتُ قد قضيتُ لياليَ مثيرةً كثيرةً مستلقيًا في السرير إلى جانب كتبه، أتلذَّذُ بهوامشه التي قد يطول الواحدُ منها صفحةً كاملةً، مُنْتشيًا بأنَّ الحقيقة قد بُلِّغتْ أخيرًا، وبأنَّ المنافقين والمتزلِّفين والمتملِّقين يعرَّضون للسخرية أمام الملإ. كان تشومسكي يَفْضح شرورَ العالم، ويُطالِب بالثأر من الأشرار، وإنْ على مستوى الخطاب على الأكثر. كان بالنسبة إليّ الملاكَ المنتقمَ للحقيقة، وصارعَ الأكاذيب. لم يكن يلطِّف الكلمات، ولا يرقِّق الزوايا. ومع أنّه أبغضَ لينين (الذي ما أزال أَمْلك جانبًا ضعيفًا تجاهه)، فإنَّهما يَشْتركان أسلوبيّاً في الكثير من الأمور. لا التواءاتٌ تزيينيةٌ أدبيةٌ، ولا زخارفُ عندهما، بل حقائقُ عاريةٌ فقط، منسّقةٌ ـ بفضل عقلٍ جبّار ـ بمنطقٍ بلّوري [شفّاف]، ومغلّفةٌ بسخريةٍ قارصةٍ وتهكُّمٍ مرٍّ، ومدفوعةٌ بغضبٍ عارمٍ على الظلم.

قال تشومسكي إنّ تحليلي يبدو مُقْنعًا. وإذ خمَّن أنّ ما كشفتُه لم يكن إلاّ رأسَ جبل الجليد، فقد أوصى بأن أَدْرس الجهازَ البحثيّ لكتاب پيترز بأكمله. ولأنّ هذه الرغبة جاءت من تشومسكي، فقد كانت بالنسبة إليّ أمرًا [ينبغي تنفيذُه]، ولذا قضيتُ الشهورَ العديدةَ التالية مستكِنّاً في فرع الأبحاث في مكتبة نيويورك العامّة، متحقِّقًا من كلّ مصادر پيترز. فاتّضح لي أنّ كلَّ اقتباساتها تقريبًا قد شَوَّهت الأصولَ، وأنّ مقاطعَ ضخمةً من الكتاب منتحَلَةٌ من كرّاساتٍ دعويّةٍ صهيونية.

بيْد أنّه أيّاً كان الجهد المبذول في توثيق كذبة پيترز، فقد تبيَّن أنّه أسهلُ كثيرًا من نشره. ذلك أنّ كلَّ المنشورات ضمن التيار السائد رَفضتْ أن تمسّ نتائجي ولو مسّاً! فالحال أنّ كثيرًا جداً من المؤسسات والباحثين سبق أن وظّف سمعتَه للترويج لكتاب پيترز؛ وفضحُه كان سيعني فضحَ تلك المؤسّسات والباحثين **أيضًا**. لذا اقتضى الأمرُ عامين كاملَيْن ليُعترف بأنّها كذبة. فأنّى تحدّثتْ پيترز كنتُ أعمل على أن أكون هناك، أو أن أُشْعِر الحاضرين بوجودي هناك. كان أصدقاء لي يُعْلمونني، من الجهة الأخرى من القارّة، وفي الساعات المبكّرة جداً من الصباحات، بأنّ پيترز ستتحدّث إلى هذا البرنامج الإذاعي أو ذاك، فأتّصلُ لأَطْرحَ سؤالاً عليها. وحين عَبَرَتِ المحيطَ الأطلسي لتروِّج للطبعة البريطانية من كتابها، تنفّستْ على الأرجح الصُّعداءَ لأنّها ظنّت أنّها لم تعد ضمن مجال ذلك المتّصل الملحاح. لكنّ صحافيّاً بريطانيّاً استطاع أن يُسِرَّ إليّ بموعد البرنامج الإذاعي البريطاني الأوّل الذي كانت ستكون فيه. وبعد أن أنهى المُحاورُ مقابلةَ پيترز أعلن «الاتصالُ الأول بنا من مدينة نيويورك!» وتخيّلتُ أنّ پيترز، بعد أنْ تلبّثتْ هنيْهةً، لا بدّ أن تكون قد فكّرتْ: «لا، لا، لا يُمْكن أن يكون هو ذاته من جديد.» لكنّ تمنّياتها خابت.

في الاتصال الهاتفيّ اقتبستُ وثيقةً أساسيةً، وذكرتُ كيف أنّ پيترز أساءت عرضَها في كتابها. أجابت پيترز، من دون أن تغيِّر لهجتَها: «أنا لم أكتبْ ذلك أبدًا.» كانت پيترز قد أتقنتْ لعبةَ الاحتمالات، إذ افترضتْ أنّ مُحاورَها لم يقرأ الكتاب. والحقّ أنّه يصعب أن يكون أحدٌ قد قرأ الكتابَ فعلاً، وكثيرٌ من اليهود اكتفوا ـ لأسباب نفسيّة ـ بالتشبُّث بمقولة إنّ الفلسطينيين لم يوجَدوا لأنّ هذا التشبُّثَ يُخْرس الشكوكَ ويسكِّن الضمائر. وما زلتُ إلى اليوم نادمًا لأنّني لم أمتلكْ من سرعة البديهة ما يكفي للردّ عليها فورًا بالقول: «لعلّكَ لم تكتبي **أنتِ** ذلك، لكنّ مَنْ كَتَبَ الكتابَ قد كَتَبَ ذلك فعلاً!» فالحال أنّ قلّةً من العارفين السياسيين ببواطن الأمور آمنوا بأنّ پيترز هي الكاتبةُ الفعليّةُ للكتاب.

❖ ❖ ❖

«كن مستعداً للملاحظات الجارحة!»

هذا ما حذّرني منه تشومسكي ذلك الصباحَ الأولَ حين حدَّثني على التلفون. غير أنّي لم أبهْ يومًا لتلك الملاحظات، وما زلتُ كذلك. باستثناء احتمال الموت، فإنّني لم أسمحْ للتّبِعات الشخصية بأن تعوِّقني، ناهيكم بأنْ تُخْرِسَني، مع أنّ الملاحظات الجارحة ما إنْ تبدأ بالتطاير في اتّجاهي حتى أنغمسَ في نوباتٍ لا تنتهي من الإشفاق المنتحِب على الذات.

أتممتُ المسوَّدةَ الأخيرة من فضح پيترز، ثم عرضتُها للنشر على عدة مجلاّت كبيرة. روبرت سيلڤرز، محرِّرُ **نيويورك**

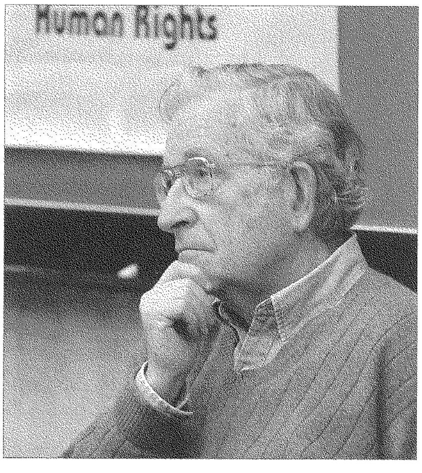

«رنّ التلفون. ألو، أنا نومْ تشومسكي. تحليلك يبدو مقنعًا!»

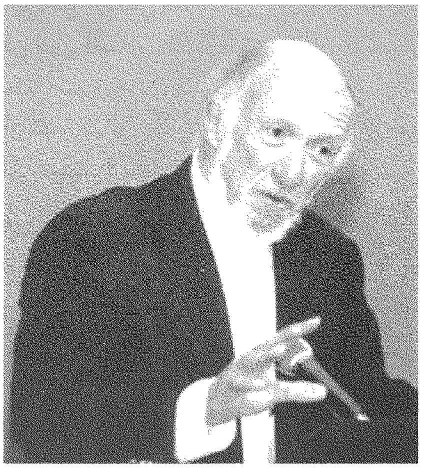

«ريتشارد فالْكْ لم يكتفِ برفض الموافقة على أطروحتي عن الصهيونية بل رفض أيضًا تقديم أسباب رفضه!»

ريڤيو أوفْ بوكس المعتبَرة، اتّصل بي شخصيّاً لتحديد موعد المقابلة. اعترافُ سيلڤرز بقيمتي حملني إلى ذروةٍ من الانفعال العاطفي، فقفزتُ قفزةً مفرطةَ الحماس، فاصطدم رأسي، المتورِّمُ [غرورًا] بلا شكّ، بظُلّةٍ حديديّة، وجَرَحتُ جمجمتي جرحًا بليغًا.

لم يكد الدمُ يرقأ بعدُ حين هُرعتُ محمومًا إلى مكتب سيلڤرز. قال لي إنّ صديقَه الحميم، الحاخام آرثر هيرتزبرغ، متأثِّرٌ جداً بعملي، فشعرتُ بالدُّوار من فرط الابتهاج. دبَّر سيلڤرز لقاءً لي بهيرتزبرغ، الذي كان يعلِّم آنذاك في جامعة كولومبيا. غير أنّي لم أكَد أدخل مكتبَ هيرتزبرغ حتى بدأ يُشير إلى نفسه وإليّ بأنّنا «نحن، الصهيونيّيْن الليبراليّيْن،...». مهلاً، فكّرتُ، ماذا يقصد بـ «نحن»؟ ثم أعلن هيرتزبرغ أنّه سيحاول أن يكون مُرْشِدَ أطروحتي.

كانت الأمورُ تسير بسرعةٍ فعلاً. ولكنْ، بعد ذلك، وكما يَحْدث دائمًا، جاء سؤالُ الحياة أو الموت: «هل أنتَ في إصطبل تشومسكي؟»

لم أستوعب التعبيرَ تمامًا، لكنّني عرفتُ ما يكفي لأن أُدرك أنّ جوابي سيكون لحظةَ صِدْق حاسمةً. قلتُ بصراحة إنّني أضع تشومسكي في أعلى الاعتبارات، وإنّي مَدينٌ بعمقٍ لدعمه. فكانت تلك نهايةَ علاقتي بهيرتزبرغ وسيلڤرز.

❖ ❖ ❖

في تلك الفترة، طَلَب مُرشِدُ أطروحتي الجديد مانفرد هالپِرْن (Halpern) لقائي فورًا. وكتلميذٍ متخرِّجٍ مطيع، وثبتُ على أول قطارٍ إلى مدينة نيويورك. وحين تَواجَهْنا جالسَيْن في مكتبه ألقى عليّ محاضرةً، وهي أنّ عليّ أن أقرِّر إنْ كنتُ أريد أن أكون باحثًا أمْ كاتبًا فضائحيّاً. دافعتُ عن نفسي بالقول إنّ فضحي لپيترز كان عملاً بحثيّاً بالفعل. ردّ هالپرن بنبرةٍ مفخَّمةٍ طنّانةٍ «وما أهميةُ فضح كذبة؟» ثم أشار إلى الرفوف التي تصطفّ عليها الكتبُ من ورائه وأكْمل: «هذا هو ما يُنْشر من الكذبات البحثيّة كلّ أسبوع!»

فكّرتُ: إذنْ، ما أهميةُ أن يكون المرءُ باحثًا؟

ومنذ تلك اللحظة لم يعد هالپرن مرشدي.

بهدوء، كانت الأبوابُ تُغْلق في وجهي، واحدًا تلو الآخر.

أمْ تُراني كنتُ أنا مَنْ يُغْلقها؟

❖ ❖ ❖

أنهيتُ أطروحةَ الدكتوراه عن الصهيونيةَ سنة ١٩٨٨. كان مُرْشدي الأول، عالِمُ النظريات السياسية المشهور شيلدون ولِنْ (Wolin)، قد وافق عليها بعد أن أنهيتُ كتابةَ المسوَّدة الرابعة؛ وهذا العدد ليس أمرًا غيرَ مألوفٍ قبل أن تُقبل أيّةُ أطروحة. أما مُرْشدي الثاني، ريتشارد فالْكْ (Falk)، وهو مرجعٌ موثوقٌ في القانون الدولي، وينتمي إلى يسار الوسط، فقد غيَّبَ نفسَه طوال مراحل الأطروحة، رغم إلحاحاتنا المتكرِّرة أنا وولِنْ. وفجأةً دَخَلَ بـ «العَرْض»: فهو لم يكتفِ برفض الموافقة على أطروحتي بل رَفَضَ تقديمَ أسباب رفضه أيضًا!

إذّاك، أَبْطل ولِنْ موافقتَه الأولى على أساس أنّ المُرْشديْن الأول والثاني في پرنستون من وزنٍ واحد، وأنّ فالْك أكثرُ علمًا بموضوع أطروحتي منه. ولمّا كان ولِنْ سيتقاعد عمّا قريب، فقد عنى ذلك أنّي سأعود إلى نقطة الصفر، لأبحث عن مُرشدين جُدُد.

والحقّ أنّ «عِلْم» فالْكْ بالصهيونية يوازي عِلْمه بكلّ موضوعٍ آخرَ يتبجَّح به: صفرًا تامّاً! وقد يبدو قولي هذا فظّاً، كي لا أقول بعيدًا عن الروح الرفاقيّة، لكنّني ما زلتُ أنتظر العثورَ على الفضيلة في دعم المتفاخرين المتبجِّحين لمجرّد أنّهم يَمْتلكون «سياساتٍ جيّدة.» كنتُ قد اتّخذتُ من فالْك مرشدًا لأطروحتي لسببٍ يحفِّزني شخصيّاً، إنْ لم يَرْفعني معنويّاً، وهو أنّه معروفٌ بكسله، وهذا ما كان سيمكِّنني ـ بعد مواجهة معايير ولِنْ الصارمة ـ بالإبحار بأطروحتي بيُسْرٍ عقبَ انقضاء ثلاثة عشر عامًا مخجلة منذ أن التحقتُ بجامعة پرنستون! ولطالما سُئلتُ عن دافع فالْكْ إلى هذا التصرُّف الغريب، وإلى اليوم لا أستطيع، بكلِّ أمانةٍ، أن أحدِّد السبب. لا يمكن أن تكون السياسةُ هي السببَ، ففالْك سبق أن جَهَر هو أيضًا بالدفاع عن الحقوق الفلسطينية. وعلى القارئ، تبعًا لذلك، أن يضع نصبَ عينيْه الاستدراكَ التالي: إنّني لا أَجْزم بأنّ كلّ الأحداث المهنيّة المؤسفة في حياتي يمكن ردُّها إلى الأحكام السياسية

المسبّقة ضدّي. ولا أعني أنّ مثل هذا التفسير خاطئٌ أو يَخْدمني شخصيّاً [على حساب الواقع والحقيقة] - فأنا دَفَعْتُ فعلاً ثمنَ قناعاتي - ولكنّي أعني أنّه ليس ببساطةٍ السببَ الأوحدَ في كلّ الحالات.

❖ ❖ ❖

أَشّرتْ أزمةُ أطروحتي على ذروةِ تجربةٍ جامعيةٍ كارثيّة. فقد كنتُ عند دخولي جامعةَ برنستون عامَ ١٩٧٥ أتخيَّل نفسي مُبْحرًا في رحلة البحث الخالص عن الحقيقة. ويا لها من يقظةٍ وقحةٍ تنتظرني! ذلك أنّ الدرس الثقافي الأهمّ الذي تعلّمتُه في برنستون كان كيفيةَ **عدم البحث** عن الحقيقة.

في كلّ أسبوع هناك، كان مقرّرًا لنا أن نقرأ جبلاً من المجلّدات والمقالات البحثية. وكنتُ أجلس في المكتبة مذعورًا، عاجزًا عن التركيز على الكتاب أمامي، بسبب كومة الكتب الهائلة التي لم تُقرأْ بعدُ وهي تترنّح إلى جانبي. ولم يتّضحْ لي إلاّ متأخّرًا أنّه لم يكن يُتوقّع منّا أن نقرأ كلَّ شيء. في إحدى الحلقات الدراسية اضطُرّ الأستاذُ بشكلٍ فجائيٍّ إلى إلغاء جلسة أسبوعية، فلم يكتفِ بإجبارنا على قراءة المجلّد الأول من **رأسمال** ماركس وحده بل **المجلّدات الثلاثة كلّها** للحصّة القادمة بعد أسبوعيْن فقط (حين درستُ في فترة لاحقة من حياتي **رأسمالَ** ماركس على يد سويزي، الذي كان جدّيّاً فعلاً، قضيْنا فصلاً دراسيّاً كاملاً نقرأ المجلّدَ الأولَ وحده). لقد كان كلُّ هدف تلك الحلقة الدراسية أن نَعْرف أطروحةَ ماركس العامّةَ، بل كان الأفضل أن نعرفَ بعضَ العبارات الرنّانة مثل «labor theory of value.» أما كيف بُنيت الأطروحةُ، وما الدليلُ الذي قُدِّم عليها، فذلك كلُّه لا يهمّ! وحين اعترضتُ ذاتَ يومٍ قائلاً إنّه يستحيل استيعابُ **فلسفة الحقّ** لهيغل حقَّ الاستيعاب، فضلاً عن نقدٍ بحجم كتاب، إضافةً إلى مقاليْن، ردّ أستاذي بسرعة قائلاً إنّي ربّما لم أُصمَّمْ لأكون طالبَ دراساتٍ عليا! ولعلّه كان مصيبًا.

بعد بضعة شهور في جامعة برنستون أدْركتُ أنّ عليّ أن أختار بين أن أتعلّم أو أن أنجح. وقرّرتُ أن أتعلّم: ففي نهاية المطاف، ألم يكن ذلك سببَ وجودي هناك؟ ومنذ ذلك الوقت أخذتُ أقرأ كتابًا أو كتابين من الكتب المقرَّرة كلَّ أسبوع، ولكنْ بعنايةٍ دقيقة، فأسطّر المقاطعَ الهامّة، مُدْخلاً على الهامش تعليقاتٍ وتساؤلاتٍ موسّعةً، ومدقّقًا في كلّ الحواشي. وأيّاً كان ما أنجزتُه على الصعيد المهني، فإنّني مَدينٌ به لهذا المفهوم العتيقِ الطرازِ من الدراسة البحثية، بدلاً ممّا تلقّيتُه في قسم الدراسات العليا في الجامعة من التدرُّبِ على **التظاهر** بذلك

غير أنّه من الصحيح أيضًا أنّني دَخلتُ برنستون بقلّةِ استعدادٍ يُرثى لها. فقد سبق أن أتممْتُ البكالوريوس في جامعة بِنْغهامتون بسرعة ولم أتعلّمْ شيئًا تقريبًا (داخل الصفوف في أيّ حال). وفي أعقاب الهبّات التي جَرَتْ نهايةَ الستينات في الجامعات، والإصلاحاتِ التربوية التي رافقتْها، ألغت جامعتي كلَّ المتطلّبات الدراسية تقريبًا. وإلى اليوم ما أزال أحتفظ بذكرياتٍ حنينيّةٍ عن تلك الأعوام، ولكنْ بشكلٍ خاصّ عن الصداقات التي نُسجتْ والقرار الذي توصّلتُ إليه بخصوص مسار حياتي. أمّا ثقافياً، فالحقّ أنّ آفاقي ضاقت؛ إذ بالإضافة إلى بضعة صفوف في الماركسية، فقد تسجّلتُ ذاتَ فصلٍ في مساقٍ عن التاريخ الروماني المبكّر. صديقٌ تروتسكيٌّ سَخرَ من زلّتي: «ما أهمّ ذلك!» فأحرجني إحراجًا عميقًا. ومن ذلك الوقت فصاعدًا التزمتُ خطَّ الحزب. بل إنّني بعد أعوام على تخرُّجي لم أفهمْ كيف لم يَرَ أحدُ الرفاق الذين اتّصلتُ بهم الأهميةَ الملحّة لآخرِ مداخلةٍ للوي آلتوسّير عن ديكتاتورية البروليتاريا. وإذ قلقتْ أمي على ضيق مجالي الثقافي الخانق، فقد شجّعتْني عملياً ذاتَ مرّةٍ على قراءة **كفاحي** لهتلر!

في غضون أسبوع من دخولي جامعةَ برنستون تملّكني الخجل. فكثيرون من زملاء صفّي كانوا أبناءَ (أو بناتِ) أساتذةِ جامعات، أما والداي فكانا بالتأكيد من جذورٍ أكثرَ تواضعًا. ولم أكن، شخصيّاً، طالبًا لامعًا بشكلٍ خاصّ؛ بل كنتُ «أتدبّر» أموري هناك، ولكنْ بفضل العَرَق لا الإلهام. فالحال أنّ قدراتي الثقافية الطبيعية قليلةٌ عددًا، غير أنّني تمتّعتُ بنعمة الحصول

«قدراتي الثقافية الطبيعية قليلة عددًا، غير أنّني تمتّعتُ بنعمة «عضلات القعود» كما كانت أمي تقول»

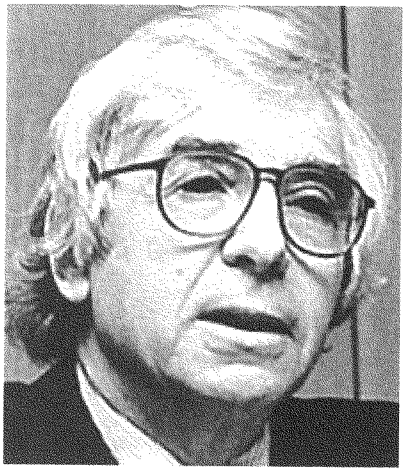

«أرنو ماير «الاشتراكي» لم يفوّت فرصةً لكي يجعل حياتي بائسة، وطاردني من قسم التاريخ إلى قسم العلوم السياسية في پرستون »

على «عضلاتٍ للقعود» كما كانت أمي تقول.[1] وليس من التواضع الكاذبِ في شيء أن أَنسبَ إنجازاتي إلى هِباتٍ عاديةٍ وُظِّفتْ بعِناد. وأستطيع، كأيٍّ كان طبعًا، أن أزعم مواهبَ طبيعيةً، صَقَلْتُها بالعمل الكادح ولديّ نظرةٌ ثاقبةٌ إلى الزيف والخداع، ويأْسرني كيف تُبْنى الكذباتُ، وأستمتع بتفكيكها ـ وهو ما أسمِّيه البحثَ «الاستقصائي »

والحقّ أنّني لم أَدخل قسمَ الدراسات العليا لأُصبح بروفسورًا، بل لأصبحَ صحافيّاً راديكاليّاً. وبحسب الرطانة الطنّانة التي كانت تؤدِّي دورَ المادة الخامّ لعملياتي العقلية، فقد كنتُ أريد أن «أفوْلِذَ نفسي عقليّاً من أجل الصراع الطبقي » في اللقاء الأول مع مُرْشدي عبّرتُ عن اهتمامي ـ وهذا يُجْفلني الآن ـ بمتابعة برنامجٍ ماركسيّ متعدِّد المناهج فلسفة ماركسية، أنثروبولوجيا ماركسية، . ماركسية، .. ماركسية . لم أكن أقرأ مجلاتٍ أكاديمية، ولا حَضَرْتُ مؤتمراتٍ أكاديمية (وفي هذا المجال، على الأقلّ، ما زال أمري على حاله). وحين استجوبَنا أحدُ الأساتذة أثناء إحدى الحلقات الدراسية عن أيّ المجلاّت نتابع، لم أُجِبْ بأنّني أتابع، كما كلّ الآخرين، **المجلة التاريخية الأميركية**، و**مجلة التاريخ المعاصر**، و**الماضي والحاضر**؛ بل قلت إنّني أتابع مجلة **پيكين**، و**المجلة الشهرية**، و**نشرة اليسار الجديد** (NLR).

عبس المدرِّسون لابتذالي، وربّما كانوا على حقّ ولأنّي كما هو واضحٌ لستُ مصنوعًا من مادّة پرنستونيةٍ، فقد بدا أنّني مادةٌ للمُناصرة والدعم بسبب خلفيّتي المتواضعة. فأنا شخصٌ ضئيلٌ، من عائلةٍ تنتمي إلى الطبقة العاملة، مقدَّرٌ له أن يَفْشل، ويستحقّ أن يَفْشل. ولو لم يشجِّعْني سويزِي، وتشومسكي فيما بعد، لكنتُ على الأرجح فاشلاً في الحياة فعلاً فمن الصعب أن يحتفظ المرءُ بـ «أنا» هُ، أيّاً كانت قوةُ شخصيّته، حين تُضْرب بشكلٍ ثابت.

ولقد كان آرنو مايرْ، وهو باحثٌ مميَّزٌ، ويساريٌّ باعترافه (آه، حذارِ من أولئك اليساريين!)، وعلى هيئة أساتذة التاريخ في جامعة پرنستون، يُبْغضني بشكلٍ خاصّ ففي رأيه أنّني أفتقر إلى الصَّقْل والنَّسَب الجيِّد معًا وما زلتُ أَذْكر بقوّةٍ الساعةَ الذهبيّةَ الثقيلةَ، المتدلّية بشكل بارز من جيب صُدرة هذا «الاشتراكي.» وهو لم يفوّتْ فرصةً لكي يجعلَ حياتي بائسةً، وطاردني في النهاية من قسم التاريخ إلى قسم العلوم السياسية اللافت أنّه بعد أعوام عديدة أَجْرَتْ دوريةٌ إيطاليةٌ مقابلةً مع مايرْ حول كتاب **جلاّدو هتلر المتطوِّعون** ـ وكان نقدي لحماقة دانيال غولدهاغنْ هذه قد صَدَر مسلسَلاً في الدورية الألمانية **ديرشپيغل**، فقال مايرْ للصحافي الذي أجرى معه المقابلة: «لقد كان فنكلستين تلميذي »

وكان ذلك انتقامًا عذبًا [لي]!

❖ ❖ ❖

بعد أن لاح، عقب ثلاثة عشر عامًا كاملة من العمل، أنّني سأُحْرَم من نيل شهادة الدكتوراه، أوشكتُ أن أعاني انهيارًا عصبيّاً. لقد حَطّمني ثِقَلُ الظلم فلقد كنتُ أَعْلم أنّي أستحقّ تلك الشهادةَ، والأهمّ أنّني اعتبرتُها هديةً إلى والديّ، تعبيرًا رمزيّاً عن أنّ حياتَيْهما ـ اللتيْن سُلِبَ منهما الكثيرُ الكثيرُ ولم ينالا منهما إلاّ القليلَ القليلَ ـ لم تكونا عبثًا، لأنّ ابنَهما، على الأقل، سيحصِّل الدكتوراه من جامعةٍ معتَبرةٍ في شرقي الولايات المتحدة

التمستُ دعمَ الأساتذة السابقين، مثل العالِم بآخر الشؤون السوڤياتية ستيفان كوهِنْ غير أنّ كوهن حجبَ دعمَه عنّي، رغم إقراره بأنّ اللجنة الخاصّة بأطروحتي قد أساءت معاملتي، وقال: «لديك الكثير من الأثقال [العوائق]، ولا تتّفق مع أيٍّ كان » وحين يئستُ وهدّدتُ بأنْ أحوِّل الفضيحةَ إلى شأن عامّ (فبعد حادثة پيترز بات ممكنًا أن أحصلَ على العلاقات التي تفي بذلك التهديد)، أقنعت الجامعةُ فالْكْ بأن يقدِّم نقدًا مكتوبًا. فكان اعتراضُه الأساسي هو أنّني لم أَذْكرْ في أيّ مكان من أطروحتي الإبادةَ الأرمنية! إنّ دَجَلَ الأكاديميين يُمْكن أن يَقْطع الأنفاسَ حقّاً، ولكنْ، بناءً على نصيحة تشومسكي، خربشتُ شيئًا من الهُراء في مُلْحقٍ في الأطروحة لكي أَمنحَ فالكْ سبيلاً لائقًا للتملُّص فوافق في النهاية على أطروحتي، ولكنْ بشرطِ ألاّ

١ ـ تعبير باللغة اليديّة، ويعني عضلات للمكوث في المكان والدراسة (م)

يَحْضر جلسةَ الدفاع الشفهي. ولم يكن الرجل الذي تقدَّم ليحلَّ مكانَ فالْك في تلك الجلسة غيرَ مانفرد هالپِرْن

تكوَّم والدي في الصفّ الأمامي يومَ جلسة الدفاع وحين سأل هالپِرْن لِمَ كنتُ أركّز على اليهود، مُلْمِعًا بذلك إلى دافع مشؤوم من طرفي، تزايد اكتئابُ أبي (لمّا كان أبي أشدَّ المتشائمين كآبةً، فقد كان على الدوام لا يرى الكأسَ، في المثال الشهير، نصفَ فارغةٍ، ناهيك بأن تكون نصفَ ملأى، وإنّما كان يراها فارغةً... ونقطة على السطر) في النهاية نلتُ درجةَ الدكتوراه، إلاّ أنّ أحدًا من لجنة الأطروحة لم يَرْضَ أن يكتب لي رسالةَ توصية. وهكذا، بين سمعتي السيِّئة الناجمة عن قضية پيترز من جهة، وغيابِ رسائل التوصية بي من پرنستون من جهة ثانية، باتت مهنتي الأكاديمية مولودًا ميِّتًا. صحيحٌ أنّ نقدي لكتاب پيترز قد تعزَّز، ولكنّ أحدًا لم يكن مستعدّاً لشكري عليه. ومع أنّ پيترز قد باتت الآن محتقَرةً عالميّاً وتوصَفُ بـ «تلك المرأة الحمقاء» فإنَّ إدانتي تجاوزتْ بكثيرٍ «تلك المرأةَ الحمقاء» لتطاول الثقافةَ الفاسدةَ التي فرَّخَتْها وروَّجتْها

لقد عَزَّزتْ مصائبي مع الأكاديميين اليساريين في پرنستون وفي غيرها درسًا مؤلمًا. وهو أنَّ ما يُزعم أنّه الصراطُ السياسيُّ المستقيم (political correctness) ليس ضمانةً للاستقامة أو الأمانة وكنتُ في أوائل الثمانينات قد صادقتُ شيوعيّاً ڤيتناميّاً موظَّفًا لدى الأمم المتحدة، وكانت علاقتُنا نموذجًا عن علاقة المعلَّم بمحميِّه كنتُ أنظر إلى تجاربه الثورية بروعةٍ وإجلال، وكان يُقابل ذلك بشتّى أنواع السخاء. وقد حضرتُ، بوصفي مساعدَه، مؤتمرًا للأمم المتحدة في الهند، وبعد ذلك وَعدَ بأن يوظِّفني محرِّرًا لأوراق ذلك المؤتمر انتظرتُ سنتيْن قبل أن يأتي التمويلُ أخيرًا: وبعد أن وقّعتُ العقد وشربْنا الأنخابَ، ذهبنا إلى الغذاء وهناك عبّر عن قلقه لأنّه لم يؤمِّن بعدُ مستقبلَه مع أنّه يشارف على الخمسين. أخبرتُه أنَّ بمقدوره دومًا أن يعملَ في مصنع؛ فالحال أنّني كلّما كنتُ أيأس من إيجاد وظيفة، كان ينصحني، كما يَنْصح شيوعيٌّ شيوعيّاً آخر، بأن أسعى إلى العمل في مصنع. لكنّني حين قلتُ **أنا** ذلك، لاذَ بالصمت فجأةً: فلقد تخطَّيتُ الحدّ، وإنْ بدعابة.

في اليوم التالي مزّق صديقي الشيوعيُّ العقدَ وكان ذلك وداعي للشيوعية، إنْ لم يكن لـ «الشيوعية.»

نيويورك

تحكي رواية «رائحة القرفة» عن علاقة سيِّدة دمشقيّة بخادمتها الصغيرة، وتغوص في عالميْهما، العالم السفلي المدقع الفقر، وعالم الطبقة المترفة. وتتحوّل هذه العلاقة إلى لعبة قوية في يد الخادمة وتجعل منها المبرّر الوحيد لشعورها بإنسانيةٍ مفقودة.

تفتح هذه الرواية عوالم مغلقة وممنوعة الإشهار، لأنَّها تمسّ أكثر مكامن الوجع في روح الإنسان الخائف والمقموع.

سمر يزبك كاتبة وإعلامية سورية. كتبت العديد من سيناريوهات لأفلام وثائقية ودرامية ونالت الجائزة الأولى لأفضل نص في الأمم المتحدة ووزارة الإعلام السورية عن فيلمها «سماء واطئة». ناشطة في مجال حقوق المرأة. كتبت في الرواية: طفلة السماء وصلصال، وفي القصة القصيرة: باقة خريف ومفردات امرأة.